فوزى جرجس

«هناك يا ولدى طريق واحد واضح لا تناقض فيه، إنه طريق الدفاع عن أرض الوطن، لقد خلقنا من ترابه فنحن جزء منه، فأرضه لحمنا وماؤه دمنا»

فوزى جرجس

(من رسالة لابنه جهاد الذى كان فى الصفوف الأولى فى جبهة القتال)

خرجنا من السجن ودارت دوامة الحياة واختفى هذا الرجل الصامت المترفع المنطوى على نفسه اختفى عن ناظرى بل عن ناظرنا جميعا.

وعندما بدأت فى الكتابة عن تاريخ الحركة الشيوعية تذكرته وبحثت عنه حتى أضنانى البحث، ثم - وبالمصادفة - اكتشفت أنه جالس دوما على كرسى فى محل ضيق بشارع منحنى من شارع السبتية وسط كومة من الخردة والمواسير وقطع الغيار القديمة، لكننى أعترف بأننى لم أعتصر منه إلا القليل من المعلومات المحايدة، أما باقى المعلومات الحية فقد قدمها إلى ابنه جهاد بعد وفاته.

ونعود إلى فوزى جرجس.. الوالد موظف بالسكك الحديدية من أسرة قادمة من منفلوط، لكن الأب يرحل بعد مولد فوزى بثلاثة أشهر، وتدوخ الأم بحثا عن لقمة عيش للأطفال وتتاجر فى بعض الحبوب، وفوزى يريد أن يتعلم لكن الطريق مسدود، الابتدائية تكفى، وبها توظف فى مخازن وزارة الصحة، لكن عشق المعرفة لاحقه، علم نفسه اللغة الإنجليزية حتى أتقنها وترجم عنها تراجم مبدعة، قرأ وقرأ حتى أصبح مثقفا مرموقا، وعندما أصدر كتابا فى التاريخ هو «دراسات فى تاريخ مصر منذ العصر المملوكى» تلقفه الكثيرون باهتمام بالغ، وعبر عشق الثقافة أتى، ففى النادى الديمقراطى حضر محاضرة ألقاها الدكتور الأهوانى عن علم النفس ودخل مع المحاضر فى جدل علمى - حين لفت الأنظار إليه - فمدوا إليه يدهم، وتعرف هناك إلى محمد نصر الدين المدرس بكلية البوليس وكونا

مع مجموعة من المثقفين المصريين جماعة «ثقافة وفراغ» وعبر د. عبدالفتاح القاضى انضم مع مجموعته إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، ولأنه كان يتأذى من كثرة الوجود الأجنبى فى الحركة فقد اهتم بتثقيف عديد من الشبان المصريين، ومن ثم تلقف بترحاب المسئولية التى أُحيلت إلى قسم المثقفين وهى ترجمة عديد من الكتب الماركسية فيما أسمى بـ«المكتبة الخضراء» (١٢ كتابا)، ويروى فى هدوء رزين: «بدأنا فى ترجمة سلسلة الكتب الخضراء، كنا نترجم من الإنجليزية ترجمة متقنة ثم يراجعها متخصصون فى اللغتين ثم يراجع النص العربى أحد أعضاء مجمع اللغة العربية، وبهذا قدمنا نموذجا متقنا يختلف عن الترجمات الشامية التى كانت تنفر الناس من قراءتها، وكنا نشرف على الطباعة والتصحيح ثم تجلد بأغلفة خضراء ولهذا سميت المكتبة الخضراء».

وتأتى حملة الطاغية صدقى فى يوليو ١٩٤٦ لتوجه ضربة شديدة للتنظيم، وهنا نقف أمام روايتين.. الأولى تقول إن فوزى جرجس ود. عبدالفتاح القاضى ومجموعتهما طالبوا بإحناء الرأس للعاصفة حتى تهدأ فلما رفض التنظيم انسحبوا وكونوا تنظيما صغيرا أسموه «العصبة الماركسية»، أما رواية فوزى جرجس فهى: «تبعثر التنظيم بعد الضربة البوليسية ولم يبق إلا قسم المثقفين فوجدنا أنفسنا دون ترتيب مسبق معزولين معا فكونا تنظيما هو العصبة الماركسية». المهم أننا نقف الآن أمام أول انقسام فى الحركة الشيوعية الوليدة، كانوا حوالى ستين عضوا، انقسموا وكانوا يلتهبون حماسا لكنهم تبعثروا.. ويقول فى حواره: «غلبة المثقفين فى هذا التنظيم أضعفت اندفاعنا الثورى، وتردد البعض مثل د. عبدالفتاح القاضى فانسحبوا، ونقطة الضعف الأساسية أننا لم يكن لدينا محترفون، ومن ثم خضع العمل التنظيمى للهواية ولأوقات الفراغ وهذا لا يمكنه أن يحقق أى تقدم»، ولكن ولأنك إذ تضع بذرة الانقسامية فإنك لا تجنى سوى ثمار مريرة فإن منظمة «الراية» إذ تأسست أقنعت عددا من أعضاء العصبة بالانقسام لينضموا إليها، وكان الانقسام مريرا فقد خرج طوسون كيرلس بعد أن سلب من التنظيم «المطبعة» سلاحه الأساسى، وأحس فوزى جرجس بأن الخارجين خرجوا ومعهم كل أسرار التنظيم ليعطوها للآخر.. أى آخر، وهو لا يثق أبدا فى الآخر.. أى آخر، فأعلن حل التنظيم، لكنه بدأ فى تشكيل تنظيم جديد هو نواة الحزب الشيوعى المصرى، وظل متحصنا فى هذا التنظيم الصغير جدا، رافضا الآخرين جميعا، وعندما توحد الجميع فى إطار الحزب الشيوعى المصرى، ظل هو مبتعدا،

توحد الجميع ثم انقسموا وهو مبتعد فى حصن من مجموعة صغيرة، انزوى بها فى سجن الواحات فى غرفة منفصلة نادرا ما يختلط أفرادها بالآخرين حتى أفرج عنه، وطوال سنوات السجن الطويل، كانت زوجته فُتنة تحمل عبء الأبناء فاشتغلت خياطة، وعندما أفرج عنه رفض كل المجاملات والمحاولات لتوظيفه وترفع على الجميع وانزوى وسط كومة من الخردة يشتريها متأففا ويبيعها متأففا وفى هذا المناخ المأساوى أثمر واحدا من أجمل وأعمق كتب التاريخ المصرى الحديث.

وفيما كنت أحاوره على باب محله ٩٨ شارع نفق السبتية اقتحمنا صبى يرتدى ثيابا متسخة بالمازوت: «يا عم فوزى عايز صامولة ٣ بوصة». اختفى بريق عينيه وظل يقلب أكوام الخردة بقدمه حتى أخرج الصامولة وقبض الثمن لكن بريق عينيه لم يعد.

ابنه جهاد يكمل الحكاية: «عندما حصلت على الإعدادية قال أبى فى حنان: الثانوية العامة ترف لا يليق بأبناء المناضلين ودخلت مدرسة الصناعات المعمارية، وتخرجت ثم إلى الجيش وفورا إلى الجبهة، وبتعليمات من أبى طلبت وألححت فى أن أصل إلى خطوط القتال الفعلية، كان أبى قد عبأ كل طاقات، حماسه ووطنيته، فى تشجيعى كى أحارب بشجاعة، وعندما أصبت كتب لى رسائل ملتهبة أن أشفى سريعا لأعود إلى الجبهة».

لكن واحدة من الرسائل التى زودنى بها جهاد تحكى كل المأساة ففى رسالة (١٤ أبريل ١٩٧٠) وصلته وهو على خط النار الأول نقرأ: «مضت مدة لم أكتب فيها، هى مشاغل الحياة، رغم تفاهة هذه المشاغل. ولعل أكثر المسائل قرفا وثقلا على النفس هى تلك المشاغل الممجوجة التى ترتبط بالبحث الممل عن لقمة العيش. إن البحث الدائم عن لقمة العيش يميت القلب ويقتل الإحساس بأى جمال فى الحياة، ولو أن الزمن فرض على أن أتحول وفقط إلى آلة لكسب العيش لأصبحت الحياة شيئا كريها لا يطاق». إنها آلام الأيام الأخيرة فى محل نفق السبتية وسط أكوام الخردة، وتبقى حكاية قصيرة قالها لى د. يونان لبيب رزق فى حديث عن بداياته السياسية، قال د. يونان: «فى بيتنا فى شبرا كانت أمى تتحدث دوما عن قريبتنا الست فتنة الخياطة التى تشقى كى تطعم أولادها لأن زوجها مسجون شيوعى، وسألت نفسى لماذا؟ وبدأت فى قراءة العديد من الكتب الماركسية، وعرفت كيف يضحى إنسان من أجل المبدأ».